﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾

[الشّعراء: 204 - 207]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

تناقضُ الأحوالِ ناشئٌ عن غفلةٍ وقلّة اكتراث بإنذار الوحي

لما تحدّثتِ الآياتُ السّابقة عن نزول العذاب بهم بغتةً، وما يحدث لهم منَ الحسرة والنَّدامة والمُطالبة بإنظار العذاب: ناسب أن ينتقل إلى توبيخهم بذكر استعجالهم العذابَ، ليحصل التَّقابلُ بين صورة المُطالِب بالإنظار بعد العذاب، وصورة المُطالِب بإنزاله قبل إتيانه، وهما صورتان للمشركين لبيان التّناقض عند وقوع المِحَن.

العذابُ الأخرويّ يُنسي لذّةَ النّعيم الدّنيويّ

ثمّ ذُكر حالهم وهم مستمتعون غيرُ آبهين بالوعيد، لبيانِ حال الغفلة التي هم فيها؛ فافتُرِض حصول التَّمتيع للمدعوّين، ثم مجيء الوعد الإلهيّ، لتنتقل الآيات بالمخاطَبين إلى السّؤال عنِ الثّمرة العمليّة من حصول التَّمتيع عند مجيء الوعد، ما الذي يُغني ذلك التّمتيعُ؟ وما الذي يدفع العذابَ عنهم؟ فهو انتقالٌ لتحريك العقل والفؤاد في كون التّمتيع مؤقّتًا لا دوامَ له، وأنَّ وقوع الوعد هو الباقي الدّائم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾: (عجل) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على الإسراع، ومنه العَجَلة في الأمرِ، يقال: هو عَجِلٌ وعَجُل، لغتان، واستعجلتُ فلاناً: حثثته، وعَجِلْتُه: سبَقْته، قال الله تعالى: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 150][1]، والمراد بالاستعجال في الآية: طلبُ الإسراع بإيقاع العذاب.

2) ﴿مَّتَّعْنَٰهُمْ﴾: (متع) أصلٌ صحيح يدلُّ على منفعة وامتدادِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجل).

مُدّةٍ في خيرٍ، ومنه استمتعت بالشَّيء، والمُتْعة والمَتاع: المنفعة في قوله تعالى: ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ [النور: 29]، ويُقال: أمتَعْتُ بمالي، بمعنى تمتَّعت، ويقولون: حبل ماتِعٌ: جيِّد، ومعناهُ أنَّ المدّة تمتدّ به، ومتَّع الله به فلانًا تمتيعًا، وأمتَعَه به إمتاعًا بمعنىً واحد، أي أبقاه ليستمتع به فيما أحبَّ منَ السّرور والمنافع، والمتاعُ: الانتفاع بما فيه لذَّةٌ عاجلة[1]، وهو المراد في الآية.

3) ﴿يُوعَدُونَ﴾: (وعد) كلمةٌ صحيحةٌ تدلُّ على تَرجيَةٍ، يقال: وعَدْتُه أعِدُهُ وعْداً، ويكون ذلك بخيرٍ وشَرٍّ، فأمّا الوَعيدُ فلا يكون إلّا بشَرّ، يقولون: أوعَدْتُه بكذا، والمواعَدَة من الميعاد، والعِدَة: الوَعْد، وجمعها عِداتٌ، والوَعْد لا يُجمع، وأرضُ بني فلانٍ واعِدَةٌ، إذا رُجيَ خَيرُها منَ المطر والإعشاب[2]، والمراد في الآية: الوعيد بنزول العذاب.

4) ﴿أَغْنَىٰ﴾: (غني) أصلٌ يدُلُّ على الكِفايةِ، ويكون الغِنَى في المالِ، يُقالُ: غَنيَ يَغْنَى غِنًى؛ والغَناءُ بِفَتْحِ الغَيْنِ مَعَ المَدِّ: الكِفايَةُ[3]، يُقالُ: لا يُغْنِي فُلانٌ غَناءَ فُلانٍ، أَيْ لا يَكْفي كِفايَتَهُ، والإغناءُ: مُرادِفُ الغِنَى، وهُما معًا ضِدُّ الفَقْرِ، وكَثُرَ استِعمالُ الغَناءِ في الإجْزاءِ والكِفايَةِ؛ لأَنَّ مَنْ أَجْزَأَ وكَفَى فقَدْ أَذْهَبَ عَنْ نَفْسِه الحاجَةَ إلى المُغْنينَ وأَذْهَبَ عَمَّنْ أَجْزَأَ عنه الاحتياجَ أيضًا، ثمّ خُصِّصَ الغِنَى في معنى ضِدِّ الفَقْرِ ونَحْوِه حَتَّى صارَ الغَناءُ لا يَكادُ يُسْمَعُ في معنى ضِدِّ الفَقْرِ[4]، والغُنْيَةُ: اسمٌ منَ الاستغناءِ عنِ الشَّيْءِ[5]؛ والغانيةُ: المُستَغنيةُ بزوجها عنِ الزّينة؛ وقيل: المُستغْنيةُ بحسنها عنِ التَّزيُّن[6]، والمُرادُ بنفي الإغناءِ في قول الله تعالى ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾: نفيُ حُصولِ النّافِعِ المُحتاجِ إليهِ، أي: ما نَفَعهم وما دفَعَ عنهم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

توجِّه الآيات سؤالًا يحرّكُ القلوب، ويهزُّ الأفئدة، كيف يستعجل أولئك عذاب الله

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (متع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غني).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 22.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (غني).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (غني).

قـيـمـةُ الـعـقـلِ النّافع في تجنُّبِ مساوئ الأعمال

تعالى، وهم إن نزل بهم أصابتهم الحسرةُ والشّدّة والبلاء؛ فالآيات تدعو الإنسانَ إلى التَّفكُّر في مآل التّمتّع منَ الحياة الدّنيا مع تركِ الإيمان إذا ما جاء العذابُ الشّديد، فإنَّ التّمتُّع الذي نال الكافرين في الدّنيا - من طول آجالهم، وطيب معاشهم، وسَعة رزقهم - ما نفعهم في الآخرة شيئًا، بل زادهم آثامًا، وأكسبهم إجرامًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ بالهمزة ﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾:

قـائـلُ الـبـاطـلِ الـمـسـتـهـزئ بالحقائق حقُّه الإنكارُ والتّوبيخُ والتَّبكيت

قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ تبكيتٌ لهم بإنكار وتهكُّم، ومعناه: كيف يستعجل العذابَ من هو مُعرَّض لعذابٍ يَسأل فيه مِن جنس ما هو فيه اليوم منَ النّظِرة والإمهال طرْفةَ عين فلا يُجاب إليها؟! ويحتمل أن يكون هذا حكايةَ توبيخ يوبَّخون به عند استنظارهم يومئذ، و﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾ على هذا الوجه حكايةُ حالٍ ماضية[2].

ووجهٌ آخرُ متّصل بما بعده، وذلك أنّ استعجالهم بالعذاب إنّما كان لاعتقادهم أنَّه غيرُ كائن ولا لاحقٍ بهم، وأنَّهم ممتّعون بأعمارٍ طوال في سلامة وأمن، فقال تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أشرًا وبطرًا واستهزاءً واتّكالًا على الأمل الطويل[3]؟!.

نوعُ فاء ﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾ ومعناها:

كشفُ ضعفهم عـنـد وقـوع الـعـذاب الـذي يستعجلونه

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ للتّعقيب عَقِبَ تكرُّر نحو قولهم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يونس: 48]، حَيْثُ جَعَلوا تَأَخُّرَ حُصولِ العَذابِ دَليلًا على انْتِفاءِ وُقوعِهِ[4]، ويحتمل المعنى أن تكون الفاءُ عاطفةً على مقدَّرٍ يقتضيه المقام، والتّقديرُ:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 402، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 196.

(أيغفُلون عن كونهم يطلبون الإنظارَ عند نزول العذاب الأليم بهم فيستعجلون به)[1]؟!.

دلالةُ إضافةِ العذاب إلى نون العظمة:

أُضيف العذاب إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ للتّهويل والتّفخيم من شأن العذاب الذي لا يُطاق، فكيف يستعجلونه، وهو عذاب الجبّار سبحانه؟!.

غرضُ تقديمِ الجارّ والمجرور ﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾:

مصبُّ الإنكارِ والتّوبيخ هو استعجال العذاب

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ (بعذابنا) على الفعل في قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾، فلم يقل: (أفيستعجلون بعذابنا) للإيذانِ بأنَّ مصبَّ الإنكارِ والتَّوبيخِ كونُ المستعجَلِ به عذابُه تعالى؛ لأنَّ الهمزة يليها المُنكَر، فمدار الإنكار أن يكون المستعجَلُ هو عذاب الله تعالى، ولِلاهْتِمامِ به في مَقامِ الإنْذارِ، أي: لَيْسَ شَأْنُ مِثْلِه أَنْ يُسْتَعْجَلَ لِفَظاعَتِهِ؛ مع ما فيه من رعايةِ الفواصل، والحفاظ عليها متوازية[2].

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾:

من طاش عقلُه سأل العجائبَ وطلب المعايبَ

دلَّ لفظُ الاستعجال في قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ على ما هُم فيه من نَزقٍ وخفّةٍ وطيْشٍ، يتوافق مع عقولهم التّافهة؛ ولَيتَهم يستعجلون شيئًا طيِّبًا تستمتع به النّفسُ! لكنّهم لحمقهم وبلاهتهم يستعجلون عذاب الله تعالى، وقد دلَّت صيغة المضارعة في الفعل ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾ على تجدُّدِ استعجالهم وحدوثِه منهم تارةً بعد أخرى، بحيث لا يصبرون، ويُلِحّون على نزول العذاب.

فائدةُ الاعتراضِ بالجملة ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾:

مباغتةُ الحمقى بالتّوبيخ عاجلُ نذارةٍ وسابقُ تأنيبٍ

قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ جملةٌ معترضةٌ بين سابقتها ولاحقتها من النّظم الكريم؛ لأنّ جملة: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ مرتّبة على قولهم

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 141.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 196.

﴿هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ﴾ وما بينهما اعتراضٌ للتّوبيخ والتّبكيت والتّهكّم وإنكارِ أن يَستعجل العذابَ من هو مُعَرَّض لعذاب يسأل فيه النّظرةَ والإمهال طرفةَ عين فلا يجاب إليها، والمعنى: أنّه لمّا ذكر أنّهم لا يؤمنون دون مشاهدة العذاب، ذكر أنّ هذا العذاب الموعود - وإن تأخّر أيامًا قلائلَ - فهو لاحِقٌ بهم لا محالةَ، وحينئذ لا ينفعهم ما كانوا فيه من غرور وكِبْر حملهم على الكفر وعدم الإيمان[1].

بلاغةُ الاستفهامِ بالهمزة ﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾:

تقريرُ المعاني الذِّهنيَّة توطئةٌ لتقرير الحقائق الكليّة

الاسْتِفْهامُ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ﴾ لِلتَّقْرِيرِ، والمعنى: (هَبْ أنّ الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم، فإذا لَحِقَهُمُ الوعيد بعد ذلك لم ينفعْهم حينئذٍ ما مضى من طولِ أعمارهم وطيب مَعايِشهم)[2]، ففيه وصفٌ دقيق لواقعهم وما يَؤول إليه حالُهم مهما طال بهم العمرُ.

معنى الرّؤية ودلالتُها:

الرُّؤْيَةُ القلبيَّة أعمُّ زمانًا ومكانًا من البصريّة

الرُّؤْيَةُ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ﴾ قَلْبِيَّةٌ، أي: أَفَعَلِمتَ؟ ولمّا كانت الرُّؤيةُ من أقوى أسبابِ الإخبارِ بالشَّيء وأَشهرِها شاعَ استعمالُ (أرَأَيتَ) في معنى (أَخبِرْني)؛ والخطابُ لكلِّ من يصلُح له كائنًا من كانَ[3].

فائدةُ فاءِ ﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾ ودلالتُها:

ترتيبُ الاستفهام على أقوال الخصمِ أحشَدُ للدّلالة

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ﴾؛ لترتيب الاستخبار على قولهم: ﴿هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ﴾، وما بينَهما اعتراضٌ للتَّوبيخِ والتَّبكيتِ، والفاءُ متقدِّمةٌ في المعنى على الهمزةِ، وتأخيرُها عنها صورةً لاقتضاءِ الهمزةِ الصّدارةَ، كما

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/ 308.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 338، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 196.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 266.

هو رأي الجمهور، أي: فأخبرني إن متّعناهم سِنينَ متطاوِلةً بطول الأعمار وطيب المعاش[1].

بلاغةُ الخطابِ المجازيِّ في ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾:

تنزيلُ غيرِ المعيَّن منـزلـةَ المـعـيَّن لتنبيه الأذهـان وتحريك الأفهام

الخِطابُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ﴾ لِغَيْرِ مُعَيَّنٍ، فهو يَعُمُّ كُلَّ مُخاطَبٍ، حَتَّى المُجْرِمينَ[2]؛ ومن ثمّ فقد خرج بالكلام على خلاف مقتضى الظّاهر، حيث أُسند الفعلُ إلى ضمير المخاطَب، الذي يكون للمعيَّن، والقصدُ إرادةُ غيرِ المُعَيَّن، على المجاز المرسل، بذكر المعيَّن وإرادة العموم، والغرضُ البلاغيّ منه أن يخاطب كلَّ مَنْ مِن شأنه الخطابُ، لجعل الخطاب كأنَّه موجَّهٌ له على وجه الخصوصِ، بأن يخبر بأنَّ تمتيعهم ماذا أفادَهم؟ وأيُّ شيءٍ أغنى عنهم؟ فلم يقدرْ أحدٌ على أنْ يخبر بشيءٍ من ذلك أصلاً.

بلاغةُ استعمالِ أداة ﴿إِن﴾:

الشّرطُ بأداة ﴿إِن﴾ في قول الله تعالى ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ﴾ يدلُّ على القلّة والنُّدرة، أي: هَبْ أنَّنا متَّعناهم عُمرًا مَديدًا، فماذا يكون بعد تلك المتعة؟ وهو يشير إلى استبعاد وقوع ذلك أصلًا.

بلاغةُ إسنادِ فعل التَّمتيع إلى نون العظمة:

طـلاقـةُ الـقـدرة الإلـهـيّـة على النّعيم والعذاب

أُسند فعلُ التَّمتيع إلى نونِ العظمة في قول الله تعالى ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ﴾ للإشارةِ إلى عظمة الخالق جلَّ في علاه، وأنَّ مَنْ يملك ذلك إنَّما هو القادر الذي لا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، فهو سبحانه من يملك التّمتيعَ، وهو من يملك العذاب؛ وأنَّ التَّمتيع ومقابلَه منَ التَّعذيب صدَرا جميعًا عن فاعلٍ واحد؛ وأنَّ العاقل الذي يستمتع في الحياة الدُّنيا عليه أن يستحضر أنَّ من يملك

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 266.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 196.

زمامَ مُتع الحياة، هو من يملك إرادة التَّعذيب، فليُنتبَه وليُحذر أن يقع المخاطَبُ في المحذور.

نكتةُ مجيءِ فعل التّمتيع بصيغة الماضي:

عُبّر بصيغة الماضي في فعل التّمتيع من قولِ الله تعالى ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ﴾ للدّلالة على تحقُّق وقوع المتعة - على افتراضِ الوقوع الذي دلّ عليه ﴿إِن﴾ - وهي مع تحقُّقِها وهْمٌ إلى زوال.

فائدةُ تقييدِ الفعل بالظرف ﴿سِنِينَ﴾:

المقصودُ بالظَّرف الزَّمنُ الطَّويل

الظّرف ﴿سِنِينَ﴾ في قول الله تعالى ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ﴾ لا مفهومَ له، فالمراد به العمر المديد أوِ السّنين الطّوالُ؛ أي: سنين لا حصرَ لها، فيدخل فيه بُرْهَةٌ منَ الزّمان، وحينٌ منَ الدهر، وإن طال، والمعنى: (فأخبرني إن متّعناهم سِنينَ متطاولةً بطول الأعمار وطيب المعاش)[1]؛ فالمراد هنا طول العمر، بدلالة قرينة السّياق، وهو لفظ التَّمتيع، وسياقُ الإمهال المرادُ منه التَّحذير.

فائدةُ استعمالِ حرف ﴿ثُمَّ﴾:

مهما تطاول الزَّمن فللمتعة انتهاءٌ وللعبد ابتلاء

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ مَعْطوفٌ على جُملَةِ الشّرطِ المُعْتَرِضَةِ ﴿إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ﴾، و﴿ثُمَّ﴾ فيه لِلتَّرْتيبِ والمُهْلَة، أَي: جاءَهُم بَعْدَ سِنينَ؛ وفيه رَمزٌ إِلَى أَنَّ العَذابَ نازلٌ وحالٌّ بِهِم لا مَحالَةَ[2]، والمَعْنَى: (أَعَلِمتَ أَنَّ تَمتيعَهُم بِالسَّلامَةِ وتَأْخيرَ العَذابِ إِنْ فُرِضَ امتِدادُهُ سِنينَ عَديدَةً غَيْرُ مُغْنٍ عَنْهُم شَيْئًا إِنْ جاءَهُمُ العَذابُ بَعْدَ ذَلِكَ؟)[3]، فهو يفيد التّرتيبَ والتّراخيَ، مع إفادة أنَّ الشّرط هو مجموع المعطوف والمعطوف عليه.

نكتةُ التّعبيرِ عن فعل المَجيء بصيغة الماضي:

جاء التَّعبير عن فعل المجيء بصيغة الماضي في قول الله تعالى ﴿ثُمَّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 266.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 197، 196.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 197.

﴿جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ أي: جاءهم لا محالةَ، فهو واقعٌ بهم، طالَ الزّمن أو قصُر؛ ففيه تحقيقٌ لوقوع العذاب، وتهديد لهم بأنّهم لا مَهرَب لهم منه.

دلالةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول ﴿مَّا﴾:

تهويلُ العذابِ وتضخيمُ العقاب لا ينفع مع هوان النّفس وذهاب العقل

﴿مَّا﴾ في قول الله تعالى ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ اسمٌ موصول بمعنى الذي، أي: ثمّ جاءهم الذي كانوا يوعدونه؛ وهو يعود على العذاب المذكور سابقًا في قوله تعالى ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، وجاء بصيغة الموصول العامّ للتّهويل والتّضخيم، ففيه منَ التّهديد والوعيد ما فيه؛ ووراءَه تبكيتٌ لهم بما مضى من تحدّيهم رسولَ الله وتعنُّتِهم معه في طلبهم العذابَ، مع ما في الاسم الموصول منَ التّذكير بالعذاب المعهودِ ذكرُه.

بلاغةُ ذكْرِ فعل الكَونِ ﴿كَانُواْ﴾:

آثر النَّظمُ الكريم ذكرَ فعل الكَونِ في جملة الصّلة ﴿مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ للدّلالة على أنَّ العذاب الذي وُعِدوه قد سمِعوه تكرارًا، لكنَّهم لم يَنتَهوا عن غَيِّهم.

نكتةُ بناء فعلِ الوَعيد للمفعول:

إبهامُ مصدرِ العذاب أوقعُ وأشدُّ على النفس

بُني الفعلُ (أَوعَدَ) للمفعولِ في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾، وهو منَ الوعيد الذي يكون في الشّرِّ؛ وذلك أنّ مقصودَ السّياق هو الاهتمام بفعل الوعيد، لا بالفاعل، فهو لشهرته والعلمِ به لم يُذكر، وفي عدم ذكره بإسناد الفعل إليه إيماءٌ إلى الغضبِ الشّديد، فهو أشدّ على النّفس وأوقَع.

نوعُ ﴿مَآ﴾ ودلالتُها:

(ما) للاستفهام إنكارًا وتبكيتًا، وتحتمل أن تكون للإخبار بالنّفي

تحتمل ﴿مَآ﴾ في قول الله تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾ أن تكون نافيةً، والمعنى: (لم يُغن عنهم تمتُّعُهم المتطاوِل في دفع العذاب وتخفيفه)[1]؛ وعليه فالجملة خبرٌ، و﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾ في الآية السابقة

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 150.

مفعولُه الثّاني مقدّرٌ، دلّ عليه السّياقُ، وتحتمل أن تكون ﴿مَآ﴾ استفهاميّةً، مفعولًا ثانيًا لـ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾، وهو الأظهر؛ والمعنى: (أيُّ شيءٍ أغنى عنهم تمتُّعُهم في تلك السّنين التي مُتِّعوها؟)[1]، ويكون الاستفهامُ إنكاريًّا[2]، حاملًا معنى التَّبكيت، ومؤدّاه النّفيُ كذلك، أي نفيُ إغناءِ تمتيعهم بالسّلامة وتأخيرِ العذاب عنهم.

نكتةُ حذفِ مفعول ﴿أَغْنَىٰ﴾:

المفعولُ محذوفٌ على جعل (ما) نافيةً، ومذكورٌ على الاستفهاميَّة

إذا جعلنا ﴿مَآ﴾ الأولى في قوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ استفهاميَّةً، فهي مفعول للفعل مقدَّمٌ ﴿أَغْنَىٰ﴾؛ وإذا جعلناها نافيةً، فعلى تقدير مفعول محذوف، والتّقديرُ: (لَم يُغْنِ عنهم تمتُّعهم شيئًا)[3]، ونكتةُ حذفِ المفعول إفادةُ معنى العموم، وأنَّ التّمتيعَ الدّنيويّ ما أجدى عنهم فتيلًا، وبالإضافة إلى هذه الفائدة، فإنّ حذف المفعول يُفسحُ المجالَ لاحتمال معنى الاستفهام في ﴿مَآ﴾، ولو ذُكر المفعول لقُطع المعنى على النَّفي، ولذهب احتمالُ الاستفهام؛ وهذا من بديع النَّظم في تنوّع الدّلالات، وتوسيعِ دائرة المعنى.

نكتةُ اختيارِ مُفردة ﴿أَغْنَىٰ﴾:

التّعريضُ بظُنون الجاهلين من استحقاقهمُ التّمتيعَ في العاجلة والآجلة

اختير لفظُ ﴿أَغْنَىٰ﴾ في قول الله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ لما يُفيضه منَ المعاني العديدة، التي تسلبُ جميعَ المنافع والفوائد منَ التّمتيع الدّنيويّ للكافرين، الذي قد يُتوهّم نفعُه لهم حين يرون العذاب الأخرويّ، فاللّفظةُ تؤدّي معنى الإجزاء والكفّ[4]؛ ومن ثمَّ، فإنَّ هذا التَّمتيع العريضَ الذي انغمس فيه الكافرون في الدّنيا غيرُ جازٍ عنهم شيئًا عند مجيء العذاب، ولا يكفّ عقابَ الله عنهم، وفيه تعريض بما يظنّه هؤلاء من إغناء تمتيع الله لهم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 194.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 196.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 559.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غني).

عن عذاب الآخرة، فإنَّهم ظنّوا أنَّ تمتيعَهم في الدّنيا لاستحقاقهم ذلك، كما قال صاحبُ الجنة: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: 36].

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿أَغْنَىٰ﴾:

قطعُ الأملِ عنِ القلوب أدعى للاستجابة، وأرسخُ في التّبكيت

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ صيغة الماضي ﴿أَغْنَىٰ﴾ في قول الله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ دون المضارع، فلم يقل: (ما يُغني عنهم): لنقْلِ المخاطَب إلى زمنٍ يستحيل معه العودة إلى الوراء، ولقطع الأمل وزرعِ اليأس في قلوبهم، فإنَّ دلالة الفعل ﴿أَغْنَىٰ﴾ أكّدت على نفي وقوعِ الإغناء، أي أنَّ الحدث منْتَفٍ تمامًا مع انتفاء زمنه؛ وهذا آكدُ في نفي الغَناء عنهم، وأنّ تمتيعهم في الدّنيا كان نسيًا منسيًّا، فلم يَرفع عنهم في الآخرة عذابًا، ولم يدفع عنهم عقابًا.

معنى حرف (عن) وفائدتُه:

التّيئيسُ منَ الانتفاعِ بالتّمتيع مُعينٌ على ترك التّمادي والتّباهي

(عن) في قول الله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ تدلّ على المجاوزة، وهذا المعنى هو أشهر معانيها وأكثرُها استعمالًا؛ والمعنى: أنّه في الآخرة ينتفي أن يتجاوزَ عنهم إغناءُ تمتيعهم الدّنيويّ، بأنْ يَدفعَ عنهم ضرًّا أو يجلبَ لهم خيرًا، فلا يستفيدون منه شيئًا، وهذا فيه قطعٌ بالغ لأمانيِّهم الكِذاب، وتيئيسٌ شديد من أن ينتفعوا بشيء من متاع الدّنيا العريض؛ وفيه كبحٌ لجماح نفوسهم عنِ التّمادي في الكفر، والإمعانِ في الضلال.

نوعُ ﴿مَّا﴾ ومعناها:

زوالُ التّمتيعِ يهوّن حالَه ويُزري بأنصاره

﴿مَّا﴾ الثّانية في قول الله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ تحتمل أن تكون مصدريّةً، والمعنى: (ما أغنى عنهم تمتيعُهم في الدّنيا)، ويكون النّفيُ بالغًا في نفي إثبات التّمتيع؛ فالمعنى مع المصدر أثبتُ من غيرِه، فإذا ما انتفى كان أخوفَ لهم، وأدعى إلى ثَوبِهم

إلى رشدهم؛ وكذلك المعنى إنْ جعلنا ﴿مَآ﴾ الأولى استفهاميَّةً، فإنّ الاستفهام هنا إنكاريٌّ يدلّ على النّفي، وتحتمل ﴿مَّا﴾ الثّانية أن تكون موصولةً مع حذف العائد، والمعنى: (ما أغنى عنهم الذي كان يُمَتَّعونه في الدّنيا؟)؛ فيكون فيه تهوينٌ من شأن هذا التّمتيع المعهود لدى المخاطَبين، فإنَّ لذّة المتعة زائلةٌ، وبزوالِها يهون أمرها.

نكتةُ ذكرِ الفعل ﴿كَانُواْ﴾:

عـنـوانُ حـيـاةِ الكافر الحرصُ عـلى تـحـصـيـلِ المُتع

آثر النّظمُ الكريم ذكْرَ ﴿كَانُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾، فلم يُقَل: (ما يُمتّعون)؛ ولذلك نكتةٌ عالية، وهي أنَّ تمتُّعهم في الحياة الدُّنيا كان ديدنَهم، وأنَّ حياتهم كانت عبارةً عن مُتَعٍ يسعَون إلى تحقيقها، و﴿كَانُواْ﴾، بدلالاتها على المضيّ: أفادت سرعةَ زوال هذا التَّمتيع، مع أنّهم ظلّوا فيه سنينَ عددًا، إلّا أنّه في سرعة انقضائه وعِظَم تفصّيه، يشعرون بأنَّهم لم يلبثوا فيه إلّا قليلًا، وأن تقلُّبهم في البلاد وتصرُّفَهم في المعايش كان ضئيلًا، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ [النساء: 77]، وقال: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران: 197]، فصار تمتّعُهم أثرًا بعد عين، فكأنَّه لم يَغْن بالأمس؛ فمجيء الفعل ﴿كَانُواْ﴾ يهوّن من هذا التّمتيع، ويستخفُّ من قدره.

دلالةُ بناءِ الفعل ﴿يُمَتَّعُونَ﴾ للمفعول:

مُتعُ الدّنيا سببُ الغفلة وعنوان النِّسيان

عبّر النّظمُ الحكيم بالفعل المبنيّ للمفعول ﴿يُمَتَّعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾، فلم يقل: (ما مَتَّعْناهُم)؛ وذلك لأنَّ فاعل التّمتيع معلوم، وهو الله سبحانه وتعالى، لأنَّه لا يستطيع أحد أن يُغدق عليهم النَّعيمَ الوفير، والعيش الوثير، إلّا الله سبحانه وتعالى، وعنايةُ النّظم بالحدَث، أي بوقوع التّمتُّع وحصوله، لا بالفاعل؛ لأنَّهم وقعوا في فتنتها، وفي تحصيل زهرتها، وتغافلوا

عن المُنعِم سبحانه، فأراد النَّظم لفتَ انتباههم إلى أنَّ هذه المُتع التي عاشوها ستزول، وفيه إشارة إلى أنَّ التَّمتيع يأتيهم من قوّة غيبيّة خفيّة، وأنّ تلك القوّة قادرةٌ على السَّلب بعد العطاء.

بلاغةُ اختيارِ مُفردة ﴿يُمَتَّعُونَ﴾:

أعظمُ الكُفرِ ما كان بسببِ كثرةِ النِّعَم وامتدادِها

دلّت مفردة ﴿يُمَتَّعُونَ﴾ في قول الله تعالى ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ على طول المُتعة التي تمتّع بها أولئك في الدّنيا، وأنّه كان متاعًا عريضًا؛ إذِ اللّفظةُ مأخوذة منَ المُتوع، وهو "الامتداد والارتفاع، يُقال: مَتَعَ النَّهار ومَتَعَ النّبات؛ إذا ارتفع في أول النّبات؛ والمَتاعُ: انتفاعٌ ممتدُّ الوقت"[1]، وهذا التَّمتيعُ كان مُغْدقًا عليهم منَ المُنعِم سبحانه وتعالى، فكان المقتضى أن يعبدوه ولا يجحدوه، ويشكروه ولا يكفروه، لكنَّهم استطالوا في الكفر والتَّكذيب، حتى فاجأَهم العذابُ الأليم، فكان متاعُهم الطّويل سببَ كفرِهم العظيم.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمُضارع ﴿يُمَتَّعُونَ﴾:

استحضارُ مُتَعِ النَّعيمِ أشدُّ في تبكيتِ اللّئيم

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالمضارع ﴿يُمَتَّعُونَ﴾ في الآية ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ لاستحضار الحال الماضية منَ التّمتيع؛ فيجعلها نصبَ أعينِهم، ليُذكِّرهم بها، زيادةً في تبكيتهم وتعنيفهم، وبعثًا لتحسّرهم وتنديمهم، وأنَّ منَ الواجب على مَن كان في مثل حالهم منَ النَّعيم العريض، والعيش الغريض، أن ينطلق قلبُه بالشُّكر، ولسانُه بالذّكر، للمنعم سبحانه وتعالى، لكنّهم أبوا إلّا كفورًا.

غرضُ حذفِ متعلّق الفعل ﴿يُمَتَّعُونَ﴾:

متاعُ الدّنيا مصيرُه الحذف ونهايتُه الحتف

في الفعل ﴿يُمَتَّعُونَ﴾ من قول الله تعالى ﴿مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ متعلِّقٌ محذوف، والتّقديرُ: (ما كانوا يُمَتَّعون به)، من متاعِ الحياةِ الدُّنيا، على أنَّ ﴿مَّا﴾ موصولةٌ حُذِف عائدها[2]؛ أوِ التّقديرُ: (الذي

(1) الرّاغب، المفردات: (متع).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 266.

كان يُمَتّعونه)[1]، ويكون الضّميرُ المبنيّ هو المحذوف، وهو في محل مفعولٍ ثانٍ للفعل المبنيّ لما لم يسمّ فاعله، وغرض الحذف التَّهوينُ من شأن هذا المتاع، وعدم الاعتداد به، وأنَّه لهوانه لا يستحقّ أن يذكر؛ لأنَّه متاعٌ زائل، ونعيمٌ حائل؛ ففي الحذف إشارةٌ إلى أنَّ متاع الدّنيا ينبغي أن يُنزَع منَ الصَّدر، كما نُزِع منَ السّطر، حتّى لا يكونَ طريقًا للمضلّة، وسببًا للمزلّة.

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 141.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والثلاثون،
سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 39 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-84-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 39 : المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-84-6
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8468153 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»